

لبنان.. رصاص التباعد بين القواميس..!

ما أصعبَ الكتابة وسط الحرقة واللوعة! بكاء من خسرت ابنَها، وحزن من فقدت شقيقَها، ودموع من انضم إلى قافلة الأيتام. وواضح أنَّ كلَّ قتل داخل الوطن يتضمنَّ ن قتلًا للوطن، وبغض النظر عن الملابس والظروف، دمُّ كل مواطن جزء من دم الوطن، إهداره جريمة تستحقُّ شديدَ العقاب ولكن عبر العدالة.

ما أصعبَ الكتابة! لأنَّنا نحكي عن بلاد الخوف والخائفين. بلاد لا يجيد القوي الحالي فيها فنَّ طمأننة المذعور، ولا يجيد الخائف سلوكَ طريق الواقعية وخفض الأضرار. وتتكسرُ الر المآسي كلما تغيَّر اسم القوي واسم المذعور.

أعرف تمامًا مسرحَ الأحداث الأخيرة المؤلمة في لبنان، جلتُ فيه مراتٍ كثيرة منذ عقود.

وأتردُّ عليه خلال زياراتي إلى لبنان كمن يتفقُّد المسرح الذي انطلقت منه الرصاص الأولى في حرب لبنان في 13 أبريل (نيسان) 1975.

تفقُّدت كثيرًا الطريق التي تفصل عين الرمانة عن الشياح. افتعلت أسبابًا عدة لزيارة الدكاكين الصغيرة على الجانبين ومعاينة الصور المعلقة فيها والتمعن في قواميس أصحاب الدكاكين وتعايرهم. كنت أكتب عن الحرب واجتذبي مربع ولادتها.

على جانبي الطريق احتشد لبنانيون فقراء أو من ذوي الدخل المحدود من العمَّال وصغار الموظفين والجنود والمتقاعدين.

جاؤوا إلى بيروت بعدما ضاقت بهم سبلُ العيش في الجنوب أو البقاع أو الشمال.

وبينهم من جاؤوا مرغمين يحملون مرارات التهجير الذي أطلقتته الحرب. لبنانيون بسطاء يحلمون بالكرامة والخبز وتأمين إرسال الأطفال إلى المدارس.

الشيّاح يكتطُ بالشّعة وعين الرمانّة تكتطُ بالمسيحيين. وكان بين شباب الشّياح من تستميله الأحزاب اليسارية قبل أن تجتذبهم هالة الإمام موسى الصدر فينخرط كثير منهم في حركة «أمل» خصوصاً بعد انتفاضة 6 فبراير (شباط) 1984 بقيادة نبيه بري.

وكان شباب عين الرمانّة ينجذبون إلى حزبي «الكتائب» و«الوطنيين الأحرار» قبل أن تنعقد السيطرة لـ«القوات اللبنانية» بزعامة بشير الجميل.

لم يخطر ببال سكان عين الرمانّة ولا ببال سكان الحي المجاور أنّ حدثاً بدا بعيداً للوهلة الأولى سيحضر بقوة لاحقاً على جانبي الطريق التي لا يتعدّى عرضها عشرة أمتار. إنّّه الثورة الإيرانية بقيادة الخميني في 1979.

وفي 1982 وبعد الغزو الإسرائيلي للبنان وفيما كان أبناء عين الرمانّة يحتفلون بانتخاب بشير الجميل رئيساً ثم يكون في وداعه قبل دخوله القصر، كانت إيران تضع اللبّات الأولى لبناء «حزب الله» اللبناني.

الحزب هو التغيّر الكبير الذي طرأ على الساحة الشيعية والمشهد اللبناني، خصوصاً بعد دوره في تحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي.

وفي حين كان الحزب يعزز حضوره السياسي وآلته العسكرية والأمنية في بداية القرن الحالي، كان سمير جعجع في السجن وميشال عون في منفاه الفرنسي. وسرعان ما بدا أنّ الحزب الذي ورث دور سوريا في لبنان بعد انسحاب قواتها من لبنان إثر اغتيال رفيق الحريري هو مشروع أكبر من قدرة الدولة اللبنانية على احتوائه.

تؤكد هذا الانطباع حين كسر الحزب بالقوة العسكرية إرادة اللاعبين السنّي والدرزي في أحداث 7 مايو (أيار) 2008.

كما تؤكد حين خرج الحزب من لبنان ليلعب أدواراً عسكرية وأمنية في سوريا وغيرها.

ما يسمعه زائر «المناطق الحدودية» بين الطوائف اللبنانية كعين الرمانّة والشويفات وقصص وصيда وغيرها يشير إلى أزمة عميقة تعيشها البلاد وتبدو غير قادرة على مواجهتها.

يستحيل بناء دولة طبيعية في ضوء الواقع القائم على الأرض والدليل هو انهيار ما كان تبقى من الدولة.

اقتصاد مدمر، وعزلة عربية ودولية، وقلق متصاعد لدى المجموعات اللبنانية، فهي تشعر بسقوط لبنان السابق وليست مطمئنة إلى موقعها في لبنان المقبل.

يضاف إلى ذلك شعور بقية الطوائف أن «حزب الله» أخرج الطائفة الشيعية من النسيج الوطني لبناني فيها نموذجاً صارماً وموصداً يهدّد بالاصطدام الدائم بالمكونات الأخرى في بلد قام على التعدد.

كانت تفصل الشياح عن عين الرمانة طريق يمكن عبورها بسهولة حين يتوقف إطلاق النار. الآن تتدّسع المسافة بين سكان المنطقتين.

في الدكان في الشياح يمكنك العثور على صورة الإمام الصدر ونبه بري أو صورة حسن نصر الله وصور عناصر «حزب الله» و«المقاومة الإسلامية» الذين سقطوا في معاركهما.

وفي الدكان في عين الرمانة يمكنك العثور على صورة لبشير الجميل وسمير جعجع، وأحياناً للبطريرك الراحل نصر الله صفير فضلاً عن شارات «المقاومة المسيحية».

قبل خمسة أعوام كان هناك في عين الرمانة والمناطق التي تشبهها من يراهن على ترميم الحد الأدنى من الدولة بعد انتخاب ميشال عون.

وتوقع كثيرون أن يحصل الجنرال بعد موقفه الملتبس من الاغتيالات والمحكمة الدولية، وبعد تحالفه مع «حزب الله» على هدايا لمصلحة الدولة وهيبتها.

حصل ما هو العكس تماماً. تسمع في عين الرمانة وغيرها مرارات من عون «الذي أخذ ما يعتبره حقاً في الرئاسة وتخلّى عن الجمهورية».

ينتقدون بقوة الرجل «الذي شارك في تعطيل الاستحقاقات الدستورية ودخل القصر وانشغل بترتيب مستقبل صهره لا مستقبل البلاد والأجيال».

قبل خمسة أعوام كان هناك من يعتقد أن "عون لن يضيع الفرصة، وأنّه سيحاول جدياً أن يكونَ الجسر بين المكونات، وأن يستعيدَ للدولة شيئاً من بريق مؤسساتها فيتجدد رهان المجموعات على الدولة لا على الصقور.

وكان هناك من يعتقد أن "عون سيخلع لدى دخوله القصر عباءة الحزبية وأحقاد الماضي، وأنّه سيكرّس نفسه مرجعاً وطنياً وراعياً لترميم المعادلة اللبنانية.

وفوجئ كثيرون أن "سنوات الرئيس انقضت في حروب صغيرة غير مقنعة، وكيديات أضعفت علاقته بمعظم المكونات ضاعفها غياب الود القديم مع الرئيس بري.

الانهيار الكبير وغير المسبوق الذي شهده عهد عون وسلوك الرئيس كأنا "مراقب معارض أضعف رصيده وشعبيته، خصوصاً بعد اغتيال مرفأ بيروت. انحسار الرهان على عون ساهم في تعزيز موقع سمير جعجع الذي بات كبير المنخرطين في مواجهة مشروع «حزب الله».

هل يريد اللبنانيون العيش معاً؟ إذا كان الرد بالإيجاب فلا خيار غير تبادل التنازلات.

لا بد من موعد في منتصف الطريق أو نقطة قريبة منها. إن "التخاطب بالرصاصة والإملاءات وفرض الملامح بالغ الخطورة في بلد متعدد تشكل الهشاشة جزءاً من قصته.

لا بد "من العودة إلى الجلوس تحت سقف الدستور.

لا بد "من قضاء مستقل لا تكسر إرادته ولا تنتقم عدالته تبعاً لمزاج القوى السياسية.

لا بد "من العودة إلى مفردات مشتركة، فالدولة العادلة لا تؤسس على الغلبة أو القهر أو كسر الإرادات.

لا بد "من مراجعة كي لا تتحول الطريق التي كانت تفصل بين حين هما عين الرمانة والشياح إلى هاوية تفصل بين عالمين. لا بد من محاكمة كل من قتل. لكن لا بد "أيضاً من العودة إلى روح لبنان واحترام

حق الاختلاف واستجماع شطايا دولة تعيد البناء من الصفر. دولة تستطيع ترميم الحديقة الهشة التي مزقتها وطأة الصقور.

ولم يعد سراً أنَّ التباعد يقضم التعايش. وأنَّ الهوة بين الأحياء المتجاورة تنسع، وأنَّ افتراق القواميس يتضاعف. كان من المؤلم أن يدوِّي رصاص جديد قرب مسرح الرصاصة الأولى.

واضح أنَّ نصرًا يغرف من قاموس لا يشبه القاموس الذي يغرف منه جعجع ، و واضح أنَّ عون ضاع في الهوة الفاصلة بين القواميس!

المصدر: الشرق الأوسط